قراءة معاصرة فى السيرة والمنهج
العلمى للشيخ الرئيس

أ.د. رفعت حسن هلال*

هو أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧م) المعروف فى الغرب باسم Avicenna وهو عبقرى ، نادراً ما تجود الأيام بمثله ، فقد عرف كطبيب لا يبارى . ويشهد كتابه «القانون» بعلم ومعرفة بفنون مهنة الطب وأصولها ، وقد ألف كتباً فى الدين والمنطق والفلسفة والفيزياء والرياضيات والفلك . وعبقريته تظهر أكثر ما تظهر فى كتابه «الشفاء» الذى يتصدى فى بعض أجزائه لعلوم ما وراء الطبيعة . فمن هو هذا العبقرى الذى ظلت كتبه فى الطب تدرس فى الجامعات الغربية حتى القرن الثامن عشر .

حياته :

إن حياته موثقة بطريقة قلما تيسرت لأحد من علماء عصره ، فقد كتب هو بنفسه سيرته الذاتية التى تغطى الثلاثين عاماً الأولى من حياته ، أما بقية حياته فقد وثقها تلميذه وصديقه الجوزانى .

ولد ابن سينا فى عام ٣٧٠هـ/ ٩٧٣م فى قرية تسمى أفشنة بجوار بخارى ، وحظى بتعليم جيد فى مراحل عمره الأولى . وأتم حفظ القرآن كله وهو ابن عشر سنين ، وأتى على كثير من فنون الأدب . وكان أبوه وأخوه ممن اعتنقوا مذهب الإسماعيلية ، وحاولوا أن يضموه إلى فكرهم ، ولكنه لم يقتنع بما ذهبوا إليه ـ رغم طفولته ـ فقال عن نفسه «وأنا أسمعهم وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسى» . وبدأت مرحلة جديدة بتتلمذه على يد أبى عبد الله الناتلى . وسرعان ما تفوق على أستاذه فقال «وكان أي مسالة قالها ، تصورتها خيراً منه» . وأخذ يقرأ الكتب بشغف وفهم تعجب منهما أستاذه ، وتولى بنفسه حل أشكال كتاب أوقليدس ، ثم انتقل إلى المجسطى فتولى قراءة الأشكال الهندسية وحلها بنفسه ، وأبدع فى ذلك حلولا لم يكن يعرفها أستاذه فقال «فكم من شكل ما عرفه إلا حين عرضته عليه وفهمته إياه» .

ولقد رغب ابن سينا فى تعلم الطب ، فقرأ ما وقعت عليه يداه من كتبه ونبغ فيه ، حتى بدأ الأطباء يقرءون عليه علم الطب وتعهد المرض «فانفتح علىّ من أبواب المعالجات المصنفة من التجربة ما لا يوصف» وكان يومئذ ابن ستة عشر عاماً .

(*) رئيس قطاع المراكز العلمية بدار الكتب ، ومدير مركز التراث العلمي بجامعة القاهرة .

ثم توفر على قراءة المنطق والفلسفة لمدة عام ونصف «لم أنم فى هذه المدة ليلة واحدة بطولها» . وانظر إلى هذا العالم الجليل الذى عرف أن الله يفتح أبواب علمه على من يريد ، وآمن إيمانا مطلقاً بأنه سبحانه وتعالى الملهم . أقول انظر إليه إذا استعصت عليه مسألة يقول : «أتردد بسبب ذلك إلى الجامع ، أصلى وأبتهل إلى مبدع الكل ، حتى يتضح لى المنغلق منه ويسهل المتعسر» . وكان لا ينام حتى يحل المسألة ، وإذا غفل يظل عقله يعمل حتى يصل إلى حل لها «واتضح لى كثير من المسائل فى النوم» .

ثم انتقل بعد ذلك لدراسة كتاب أرسطو فى علوم ما وراء الطبيعة «الميتافيزيقا» وقرأه أكثر من أربعين مرة ، محاولا فهم مغزاه والاقتناع بما فيه ، ولكنه لم يستطع . وانظر إلى أمانته العلمية حيث يقرر أن كتاب الفارابى فى شرح علوم ما بعد الطبيعة هو الذى يسَّر له فهم كتاب أرسطو . وعندما قام بعلاج أمير بخارى - فى ذلك الوقت - نوح بن منصور ، سمح له بدخول مكتبة بخارى العظيمة ، حيث قرأ ما تحويه من أمهات الكتب ، ونهل من علم من سبقه من العلماء ، وفرغ منها جميعا ولم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره .

وببلوغ ابن سينا سن الواحدة والعشرين ، كان قد فرغ من أول كتاب له فى الفلسفة سماه «المجموع» ، وكان كتابًا جامعًا فى العلم أتى فيه على سائر العلوم سوى العلم الرياضى . ثم صنف كتاب «الحاصل والمحصول» فى حوالى عشرين مجلداً ، فى علوم الفقه والتفسير والزهد ، وكتابا فى الأخلاق اسماه «البر والإثم» وبدأ عطاء العبقرى .. واندفع قلمه ليكتب ويصنف ويشرح فنون العلوم كلها .

ويشهد العام ٣٩١هـ / ٩٩٥م نقطة تحول جذرى فى حياة ابن سينا ، فقد مات أبوه العائل له والسند ، فاضطر إلى الخروج إلى معترك الحياة ليعمل فى إدارة سلطان البلاد . ولحكمته وبعد نظره قربه السلطان كوزير للبلاد . وكان لهذا الحب أعداء حاولوا النيل من مكانة ابن سينا لدى الحاكم ، وتآمروا عليه فحوكم وسجن ، وهرب وتخفى . وعاش الأربعة عشر عاماً الأخيرة من حياته فى أصفهان ، يتكسب عيشه من علاج المرضى . ومات عام ٤٢٨هـ/١٠٣٧م . فى همدان ودفن فيها . ولا يسعنى أن أصف إحساسه بضيق الأرض عليه بما رحبت ، وهوانه على الناس ، أكثر من وصفه لنفسه فى بيت من قصيدة له ، قال فيها :

لمـــا عظمتُ فليس مـــصـــرٌ واســـعى
لمـــا غـــلا ثمنى عـــدمت المـــشـــترى

ولم يكن ابن سينا فيلسوفا عادياً عاش فى كتبه ، ولكنه كان يصارع الحياة نهاراً ، ويسهر طوال الليل يكتب ويدرس ويحل المعضلات العلمية . كان يكتب فى أى مكان ، ولو على صهوة حصان ، أو فى السجن ، ومرجعه الوحيد هو ذاكرته الفولاذية .

وقد كان يؤمن بالمنهج التجريبى فى العلم . وليس صحيحا أن أعماله لم تكن إلا تطبيقا لنظريات من سبقه من علماء اليونان ، فالمنهج مختلف ، بل إن ابن سينا فى كثير من المواضع ينقض ويستهجن النظريات اليونانية ، وهو ينظر مثلاً إلى منطق أرسطو على أنه غير كاف ولا يتصل بالواقع .

أعماله :

إن أعمال الشيخ الرئيس التى وصلت إلينا أعمال ضخمة ، ولكنها غير كاملة ؛ لأنه كان يجيب على ما يوجه إليه من مسائل ، ولا يهتم بتدوين هذه الإجابات فى أحيان كثيرة .

وبعض ما كتبه ابن سينا فُقد فى حياته مثل كتاب «الإنصاف» ، وقد أحصى العلماء له ٢٤١ كتابا ، منها ١٣١ تأكدت نسبتها إليه ، أما بقية الكتب ففيها شك . ويرجع هذا الشك أول ما يرجع إلى التنوع الكبير فى مجالات العلم التى كتب فيها الشيخ الرئيس . فقد عرف كفيلسوف وطبيب ، ولكن كتاباته فى التاريخ الطبيعى والفيزياء والكيمياء والفلك والرياضيات وحتى الموسيقى ، جعلت الباحث يلهث لتحرى الدقة فى نسبة الكتب إليه .

والمتفحص لمنهج ابن سينا يلاحظ أنه فرق بين العلوم التطبيقية التى أفرد لها الكتب الخاصة مثل كتابه الشهير «القانون فى الطب » ، وبين العلوم النظرية والبحتة مثل الرياضيات والفيزياء ، التى اعتبرها جزءاً من الفلسفة ، واشتمل عليها كتابه المعروف فى الفلسفة والميتافيزيقا (الشفاء) .

وكتاب «القانون» يمثل وحدة علمية متكاملة ومنظمة ، فى أبواب تغطى جميع المعارف الطبية فى زمنه ، معززة بشرح العالم العبقرى ، مما جعل الكتاب مرجعا رئيساً فى الجامعات للتدريس وممارسة الطب لمدة تزيد على سبعة قرون متتالية . وحتى فى وقتنا الحاضر ، فإن علماء الكيمياء الصيدلانية يجدون فيه من وصف الأدوية المفردة والمركبة والنباتات الطبية ما لا يجدونه فى غيره من المراجع . ويقرر الدكتور عبد الله أحمدين - أحد الأطباء المعالجين بطهران (إيران) - أنه درس الممارسات الطبية لابن سينا وطبقها على مرضاه ، وحقق نتائج باهرة ، وخاصة فى علاج الروماتيزم .

ويقع كتاب «القانون» فى خمسة مجلدات . يقدم المجلد الأول عموميات الطب ، فيُعرّف بالجسم البشرى ، وأعضائه وأجهزته ، والأمراض والممارسات العلاجية المختلفة بصفة عامة (وقد أطلق على هذا المجلد فى ترجمته الفرنسية اسم «التشريح» ب .د . كونج ١٩٠٥-١٩٣٠) ، واحتوى المجلد الثانى على العقاقير ، وصيدلانية النباتات والأعشاب الطبية . أما المجلد الثالث فيقدم دراسات فى علم الأنسجة pathology مقسمة إلى دراسة الأعضاء ، أو الأنظمة فى الجسم البشرى . وأما المجلد الرابع فيبدأ برسالة فى الحمى ، يليها رسالة عن العلامات والأعراض والتشخيص للأمراض ، مع تقديم شرح واف للعمليات الجراحية الثانوية ، والأورام والجروح والكسور والسموم . ويقدم المجلد الخامس موسوعة الصيدلة pharmacopoeia فى أبهى وأكمل صورة .

ولم يكتف ابن سينا بهذا الكتاب الجامع ، ولكنه ألف العديد من كتب الطب الصغيرة التى تغطى موضوعات بعينها ، حتى يضمن أوسع انتشار لها وأكبر فائدة منها . ومن أشهر هذه الكتب ، كتابه فى النبض PULSE والموسوعة الصيدلانية pharmacopoeia ، و«النصيحة فى حفظ الصحة» ، وهو من أوائل الكتب فى تاريخ الطب التى تتعرض لمجال الطب الوقائى .

ومن ألطف ما كتب ابن سينا قصائد شعرية ، لتقديم الأساسيات والمعارف الطبية الرئيسة ، وكان لهذه القصائد بالغ الأثر فى تعليم الأطباء وتدريبهم ، وقد أطلق على إحداها «الأرجوزة فى الطب» وترجمت إلى اللاتينية عدة مرات بين القرنين ١٣ و ١٧ الميلاديين تحت اسم «Cantica Avicenne» ثم ترجمت إلى اللغات الأوروبية مثل الفرنسية [١] .

ولعل من المناسب هنا ، أن نعرض لمنهج ابن سينا فى الطب ، حيث قدم هذا العالم الفيلسوف منهجًا للباحثين فى مجال الطب يعكس فيه فهمه العميق ونظرته الواسعة للمرض والصحة . وقد لخص منهجه الطبى فى عبارة واحدة تقول : «إن لكل شىء سببا ؛ فلا بد من فهم أسباب المرض وأسباب الصحة» ، وهذه الأسباب من الممكن أن تكون ظاهرة ، وفى أغلب الأحوال تكون خفية ، ولذا فإن من الواجب دراسة الأعراض . والأسباب على العموم أربعة أنواع هى : أسباب مادية ، وأسباب متعلقة بالكفاءة ، وأسباب شخصية ، وأسباب عامة .

---

(١) Pome de la medecine, H.Jahier and A.Noweddine, Paris, 1956.

والأسباب المادية : هى المرتبطة بالعضو المصاب نفسه ، أما الأسباب المرتبطة بالكفاءة فهى ما يتعلق بالبيئة المحيطة بالإنسان من هواء وماء وخلافه . وانظر أخي القارئ إلى تنبه هذا العالم العظيم لأهمية التلوث البيئي وأثره على صحة الإنسان العامة ، فهذا الوعى البيئي لم يحظ باهتمام الإنسان المعاصر إلا فى العقود الأخيرة من القرن العشرين . ويلخص ابن سينا فى كلمات بليغة تأثير البيئة على الصحة العامة ، فيقول : «كلما زاد ما يعلق بها (يقصد البيئة ، من هواء وماء وتربة) ظهرت وتسارعت أعراض المرض» .

ولم يكتف ابن سينا بالمنظور البيئي للمرض ، ولكنه خرج منه إلى المنظور الشخصى hygiene من عادات نوم ، وعادات أكل ، وطريقة عمل ومشى ، وكل ما يتعلق بالحياة الخاصة للإنسان . وخلص إلى أنه لابد من اتباع إرشادات صحية فى الأكل والشرب ولابد من القيام بالتمارين الرياضية حتى تحفظ الصحة . وهكذا قدم الشيخ الرئيس المفتاح للصحة العامة وأهم قواعد الطب الوقائى .

ولم يكن هذا العالم الدقيق فى تحليله والنافذ إلى جوهر المشكلة يشتت جهده فى الفروع ، وكان دائما يحدد هدفه النهائى قبل بداية البحث ، ثم يتجه إلى هذا الهدف دون أن يضيع جهده فى المشاكل الفرعية . فعندما بدأ علاج تسوس الأسنان حدد الهدف حين قال : «الغرض من علاج التآكل منع الزيادة على ما تأكل ، وذلك بتنقية الجوهر الفاسد منه ، وتحليل المادة المؤدية إلى ذلك» .

أما كتب ابن سينا فى مجال الفلسفة فكثير منها وصل إلينا غير كامل ، وبعضها فقد تمامًا . والفلسفة عند ابن سينا تعنى : المنطق ، والعلوم الفلسفية البحتة التى تبحث فى الكون ، وما وراء الطبيعة . وتعنى أيضا العلوم الطبيعية ، مثل الفيزياء ، والفلك ، والرياضيات .

لقد كان ابن سينا يبحث فى الأصل والجوهر ، وكان يؤمن كما نؤمن نحن الآن أن لكل علم فلسفة ، وأن الله سبحانه خلق العلم وخلق منهجه ، وعليك أيها الباحث أن تفهم منطق المنهج العلمى وتفلسفه . ومن أهم وأعظم كتب ابن سينا فى هذا المجال كتاب «الشفاء» الذى قدم فيه نقضاً ودراسة وتحليلاً لتطبيقات ما وراء الطبيعة metaphysics ، بالإضافة إلى رسائل غاية فى الأهمية فى : الحركة ، والسكون ، والنسبية ، والفعل ورد الفعل . وهذه الأعمال يجب أن يتصدى لتحقيقها من منظور معاصر علماء فى مجالات الفيزياء والرياضيات ، رغم أن هذا الكتاب قد تم نشره محققاً على يد الدكتور محمود قاسم ، وقدم له الأستاذ الجليل الدكتور إبراهيم مدكور .

وقد قام ابن سينا بنفسه باختصار أجزاء من كتاب «الشفاء» ؛ لتقديم أهم الأفكار فى كتاب مختصر بعنوان «كتاب النجاة » . كما وصل إلينا أيضا فى صورة كاملة كتاب «الإشارات والتنبيهات» . وكذلك كتاب «دانش نامه علائى»[1] ، وهو كتاب كتبه بطلب من الأمير علاء الدولة . أما كتاب «الإنصاف» فلم تصلنا إلا أجزاء منه . وكذلك كتاب «منطق المشرقيين» . وقد زخرت المكتبة العربية بالعديد من الكتيبات التى ألفها ابن سينا لتوضيح وجهة نظره فى قضية ما ، أو لتوضيح بعض النقاط أو التفاصيل الهامة .

والقراءة المتأنية للسيرة الذاتية والعلمية للشيخ الرئيس توضح مدى عمق تفكير هذا الرجل الذى يحدد هدفه ويركز عليه ، ولا يشغل نفسه أو يشتت ذهنه بالدخول فى التفاصيل وإنما «يغوص إلى عمق المشكلة» .

تأثير ابن سينا فى الغرب :

إن انتقال علوم الإغريق إلى العربية فى حركة الترجمة الكبرى ، وترجمة العلوم العربية إلى اللاتينية كانت اللبنة الأولى والأساس للنهضة العلمية المعاصرة . وقد بدأت حركة الترجمة من العربية فى القرن العاشر الميلادى فى صقلية ، ثم توسعت وأخذت شكلاً مؤسسياً فى توليدو بأسبانيا خلال القرن الحادى عشر ، ثم انطلقت شرارتها إلى أجزاء أخرى من أوروبا كفرنسا وإيطاليا . وكان الكتابان الرئيسان لابن سينا : «القانون» و«الشفاء» من الأعمال الأولى التى ترجمت ، وجعلته شخصية مشهورة ومحترمة فى الغرب كعالم وفيلسوف .

ومن بداية القرن الثانى عشر وحتى القرن السادس عشر ، كان تدريس الطب وممارسته فى أوروبا يعتمد بصفة أساسية على كتاب «القانون» . ورغم أن أعمال أبى بكر محمد ابن زكريا الرازى كانت معروفة ، ولها تقدير عظيم من الناحية الإكلينيكية ، إلا أن «القانون» ظل الدستور الرئيس للأطباء . وقد ترجم لأول مرة فى الفترة من ١١٥٠ إلى ١١٨٧م ، على يد جيرارد سيرمونا . وتلا ذلك العديد من الترجمات التى بلغ عددها ٧٨ ترجمة ، أغلبها إلى اللاتينية ، وبعضها إلى العبرية . ويجب أن نلاحظ هنا أن ترجمة المصطلحات الطبية لم تكن على مستوى علمى دقيق ، وبعض المصطلحات العربية أخذت كما هى دون ترجمة ، وربما لم يكن معناها الحقيقى والمغزى الذى ترمى إليه واضحاً تماماً فى أذهان المترجمين . وذلك يعكس الفارق فى مستوى علم الطب الأكاديمي بين الشرق العربى والغرب الذى كان

---

(١) كلمة فارسية تعنى رسالة فى المعرفة ، وعلائى إضافة إلى الأمير علاء الدولة الذى ألفت الرسالة بناء على طلبه .

يحاول أن ينفض عنه ظلام العصور الوسطى . وكانت الصورة أكثر إشراقا فى ترجمات «الشفاء» التى تميزت بدقة عالية وفهم للمصطلحات .

وقد اعتمد العلماء فى تدريس الطب على كتاب «القانون» فى أغلب الجامعات الأوروبية . وظهر هذا الكتاب كمرجع أساس لدراسة الطب فى أقدم برنامج دراسى معروف فى أوروبا فى كلية الطب فى فرنسا عام ١٣٠٩م ، وفى جميع برامج تدريس الطب اللاحقة حتى عام ١٥٥٧م الذى ظهر فيه كتاب «الطب» تأليف : جالين . ومع هذا فقد ظل كتاب «القانون» يدرس حتى القرن السابع عشر . يؤكد ذلك التحقيق الذى نشر فى روما عام ١٥٩٣ لكتاب «القانون» . والأدب الأوروبي - كما تمثله قصص كنتر بارى - يحكى لنا أنه لا يوجد طبيب لم يدرس كتاب «القانون» . ولقد كان من الشائع أن يتخصص الطبيب فى أحد فرع الطب كما قسمها ابن سينا . مثلاً : فى تخصص الحمى ، أو أمراض العيون ، أو أمراض القلب ، وهكذا . وعلى الجانب الآخر ، اعتمد جميع العلماء العرب كتب ابن سينا كمرجع أساس لهم ، رغم أن بعضهم شكك فى صحة بعض أفكاره ، مثل ابن زهر ، أو حتى أثبت خطأها وقدم التصحيح لها ، مثل : ابن النفيس عندما سجل اكتشافه للدورة الدموية . كما كتب ملخصاً لكتاب «القانون» يسمح لأي طبيب بفهمه واستيعابه بسهولة ويسر .

أهم ما كتب الشيخ الرئيس :

١- كتاب النجاة (تحقيق د . ماجد فخري) (ودون تحقيق من موقع الوراق (W) (وب) .

٢ - كتاب الشفاء :

٢ . ١ . جزء : الإلهيات (محقق دار الكتب والوثائق المصرية) (ودون تحقيق من موقع الوراق (W)(وب)

٢ . ٢ . جزء الطبيعيات(محقق دار الكتب والوثائق المصرية) (علم النفس تحقيق يان باكوس)

٣- كتاب الإشارات والتنبيهات مع شرح الطوسى (تحقيق د . سليمان دنيا)

٣ . ١ . الجزء الأول : المنطق (دون تحقيق من موقع الوراق (W) ترجمة شمس عناتى

٣ . ٢ . الجزء الثانى : الطبيعيات (دون تحقيق من موقع الوراق (W)

٣ . ٣ . الجزء الثالث : الإلهيات (دون تحقيق من موقع الوراق (W)

٣ . ٤ . الجزء الرابع : التصوف (دون تحقيق من موقع الوراق (W) ترجمة شمس عناتي

٤- كتاب القانون في الطب

٥- كتاب المبدأ والمعاد ترجمة ودراسة د . يحيى مشعوط (فرنسية)

٦- كتاب الحدود (تحقيق وترجمة فرنسية ، آن مارى غشيون)

٧- عيون الحكمة (دون تحقيق من موقع الوراق (W)

٨ - المباحثات (تحقيق عبد الرحمن بدوى فى كتابه أرسطو عند العرب)

الكتب والرسائل التي ليست مؤكدة النسبة إليه :

١- ١- رسالة فى الحزن من مخطوطة مدرسة المراغة .

٢- ٢- دانش نامه علائى : ترجمة فرنسية .

قائمة مؤلفاته وكتبه وما كُتب عنه :

● مؤلفات ابن سينا ، لجورج قنواتي .

● AN ANNOTATED BIBLIOGRAPHY ON IBN SINA (1970-1989) INCLUDING ARABIC AND PERSIAN PUBLICATIONS,
AND TURKISH AND RUSSIAN REFERENCES by Jules L. JANSSENS
Leuven University Press

مواقع عن ابن سينا على الشبكة :

● بحث خلال (موقع جوجل) Avicenna - Ibn Sina.(ج)

● بحث خلال (موقع التا فزتا) Avicenna - Ibn Sina(ج)

● بحث خلال (موقع هيابيس) (موقع نويس) (ج)

● قائمة المكتبة الوطنية الكندية (ج)

● موقع المكتبة الوطنية الأمريكية للطب . فهرست خاص للمخطوطات الإسلامية في الطب .

● يقدم موقع مكتبة الكونجرس الأمريكي دراسة ببليوجرافية عن أهم الدراسات والكتب عن ابن سينا . باللغات العربية والفارسية والإنجليزية والفرنسية ، والذي يعطى بالإضافة إلى كتاب يولز يانسن صورة متكاملة عن الموقف الحالي من الدراسات والتحقيقات لأعماله .